

الحيل والخدع العسكرية الاسلامية منذ بداية الغزو
الصليبي حتى وفاة نور الدين محمود
(١٠٩٨ - ١١٧٤م / ٤٩٤ - ٥٦٩ هـ)

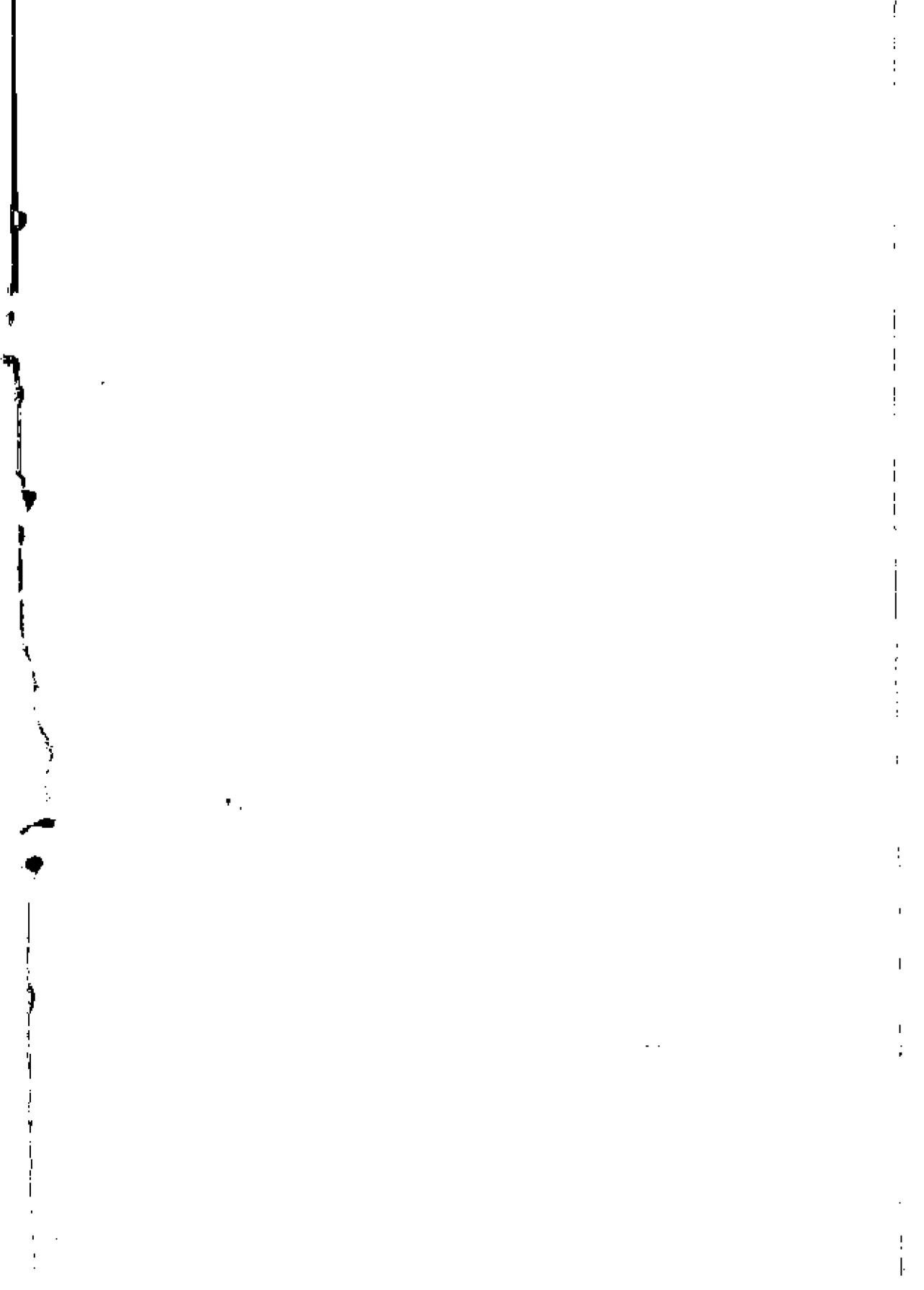
اعداد

دكتور

ابراهيم نجيب ابراهيم

مدرس التاريخ الوسيط - بكلية الاداب

جامعة الاسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

عرفت البشرية الحروب منذ أقدم العصور ، وتعددت أسلحتها وأساليبها واختلعت من عصر إلى آخر باختلاف الزمان والمكان والظروف . وشهدت الفترة التي قام فيها الصراع بين المسلمين والصليبيين أساليب متعددة من الخيل والخدع العسكرية التي مارسها الجانبان على حد سواء . وقد أظهر المسلمون تفوقا واضحا على الصليبيين في أساليب الحرب والقتال ، الأمر الذي أكدته كثير من الكتاب الغربيين الذين عاصروا هذا الصراع . وعنوان بحثنا هو : الخيل والخدع العسكرية الإسلامية منذ بداية الغزو الصليبي حتى وفاة نور الدين محمود (١٠٩٨ - ٤٩٤/م ١١٧٤ - ٥٦٩ هـ) .

تحدثنا في البداية عن المقصود بالخيل والخدع العسكرية ، ثم بينا الفرق بينهما وأعقبنا ذلك بالإشارة إلى أوجه استخدامات الخيل العسكرية ووسائلها مستشهدين ببعض الأمثلة عن استخدامات المسلمين لها في صراعاتهم مع الصليبيين أما عن الخدع العسكرية فقد تحدثنا عن أساليبها المختلفة ومنها خدعة النكمن ، وحددنا الشروط التي يجب مراعاتها لاجتياح تلك الخدعة ، وبيننا مدى نجاح المسلمين في استخدامها ثم أشرنا إلى خدعة الارتداد الظاهري وأوردنا بعض الأمثلة التي توضح استخدام القوات الإسلامية لها ضد الصليبيين ، وأعقبنا ذلك بالحديث عن خدعة الهجوم التومي وبينا أثر استخدام المسلمين لتلك الخدعة على مجريات الأحداث فوق رقعة الشرق الأدنى الإسلامي . واختتمنا البحث بالإشارة إلى كيفية استخدام المسلمين للظواهر الطبيعية في أعمال الخدع العسكرية . وفي الختام ، ادعو المولى القدير أن يكون قد وفقنا في ما فيه صالح أمتنا الإسلامية ، والله ولي التوفيق .

د . إبراهيم خيس إبراهيم

لا ريب أن الحيل والخدع العسكرية تعد من تدابير الحرب في أى زمان ومكان وتؤثر على مجرياتها . وقبل أن نبين أهميتها في الصراع الإسلامى الصليبي لابد من أن نقوم بتعريف كل من الحيل والخدع العسكرية الإسلامية ، ونوضح الفرق بينهما .

لم نشر قواميس اللغة العربية الى تعريف كل من الحيل والخدع العسكرية ، بينما يوضح الأنصارى أن الحيلة هي التي تمكن القائد العسكري من « الحصول على الظفر ، مع سلامة النفس وحفظ الجند والراحة من التعب »^(١) . وعلى هذا فان الحيلة العسكرية هي التي تحقق النصر على الأعداء دون الاشتباك معهم في معارك وذلك أن القائد العسكري في أية معركة لا يبحث عن النصر دون خسائر ، ودون أن يتعرض جنده للاخطار في القتل والجرح^(٢) ، وبالحيلة أو المكيدة يجنب جنده تلك المخاطر ، أو بأقل قدر من الخسائر البشرية والمادية .

أما عن الغرض من استخدام الحيل العسكرية فيتمثل في تحقيق شمل الخصوم ، وإيقاع الخلف بينهم ووثوب بعضهم ببعض^(٣) ، وإبعاد خطرهم^(٤) ، وإستلاك قلاعهم ومدنهم^(٥) .

وبالنسبة لتعريف الخدعة العسكرية يتضح من المصادر العربية وغير العربية^(٦) أنها تمثل الوسيلة التي عن طريقها يفرى القائد العسكري قوات أعدائه الى التوجه الى أماكن يتم فيها هزيمتهم . وبذلك تنفق الحيلة العسكرية مع الخدعة في الغاية وهي تحقيق النصر وبمختلفان في الوسيلة ، فالأولى تجنب الاخطار ، والثانية تؤدي الى الظفر مع وقوع بعض الخسائر .

- (١) الأنصارى : تفرج الكروب في تدبير الحروب ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٢٧ .
- (٢) المرزبي : مختصر سياسة الحروب ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢١ .
- (٣) الأنصارى : المصير السابق ، ص ٢٨ .
- (٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٣ ، بيروت ١٩٧٩م ، ج ١١ ، ص ٥٨ .
- (٥) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب ج ٣ ، تحقيق د. جمال الدين الشبان ، القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ١٢٦ .
- (٦) عن تلك المصادر انظر الصفحت التالية .

والسؤالات التي تطرح نفسها هنا هي : متى يلجأ القائد الى الحيلة ؟ ، والى وسائلها ؟ ، والى أى مدى طبقها القادة المسلمون أثناء صراعهم مع الصليبيين ؟ . وبالنسبة للاجابة عن التساؤل الأول نوضح : أن من بين الصفات التي يجب أن تتوفر في القادة العسكريين ، حسن البصيرة في اختيار المواضع المناسبة لاستخدام الحيل والمكايدة ، وبلوغ القصد بأدنى الحيل ، وان لا يعمل على النزال اذا وجد للحيلة سبيلا^(١) ، ويلجأ القائد إلى إستخدام الحيل العسكرية في الاحوال الآتية :

أولاً : اذا كان جيشه أقل عدداً وعدة من جيش أعدائه . ففي هذه الحالة يجب على القائد أن يلجأ الى الحيلة ولا يتعجل في لقاء أعدائه ، ولا يتعرض لهم إن أعرضوا عن القتال ، حتى لا يكون كمن « أثار الحية من حجرها^(٢) » فعرض نفسه للضرر .

ثانياً : الظفر بأسر أحد قادة الأعداء ، ويمثل هذا الجانب في استخدام نور الدين محمود الحيلة في القبض على جو سيلين الثاني Joscelyn II حاكم الرها الصليبي سابقا ، وتل باشرانذاك (١١٣١ — ٥٢٦/١١٥٩ — ٥٥٤ هـ) بعد ما رأى أن استخدام القوة العسكرية لا تجدى نفعا معه^(٣) .

ثالثاً : فتح المدن التي يصعب أخذها بالقهر . ويتضح ذلك في أخذ نور الدين محمود مدينة دمشق بالحيلة عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م بعد أن فشلت المحاولات العسكرية في فتحها^(٤) .

(١) المرثي : المصدر السابق ، ص ١٥ ، ١٧ ، ١٩ — ٢٠ .

(٢) الأضاري : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٥٤ ، وايضا :

Willam of Tyre Ahistory of Deeds done Beyond the sea, 2 Vol., New York, 1943 Vol, 11, P.

201

(٤) ابن العديم : زهرة الحلب في تلويح حلب ، ج ٣ ، تحقيق ساسي الدهان ، دمشق ١٩٥١ ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

وبالنسبة الى الوسائل التي تؤدي الى نجاح الحيلة فتمثل في توفيق القائد في استمالة قلوب بعض الاعداء بأن يعدهم بكل جميل ، ويتحفهم بالهدايا ويطمع آمالهم في بلوغ كل مقصود ، وان يعرف عنهم ويصفح عن جرائمهم ان مالوا اليه ويبدل الامان لكل من سأله منهم ، ويدعوهم الى الثوب على رؤسائهم ان أمكنهم ، أو يعتزلوهم ويخرجوا عليهم ، وايضا في أن يكتب الى قادة خصومه كتباً كأنها جواب عن كتب وصلت اليه من بعض أعوانهم ، ويلقيها في المواقع التي يتوقع أن يعرفوا عليها فيؤدي ذلك الى افتراق كلمتهم ، وتشتيت جماعتهم ، وتغيير خواطر بعضهم من بعض مما يجعلهم يقتل بعضهم بعضاً^(١)

أما عن اجابة التساؤل الأخير ، فيجب الاشارة أولا الى أن الحيلة والخدعة في الحرب امران لاخبار عليهما ، وذلك بما ورد في الصحيحين عن ابي هريرة وجابر ابن عبد الله الانتصاري — رضي الله عنهما — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحرب خدعة » .

استخدم القادة المسلمون الحيل العسكرية المختلفة في حروبهم مع الصليبيين ففي عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ حاول الامير النورمانى بوهمند الأول Bohemond 1 حاكم أنطاكية (١٠٩٨ — ١١٠٤م/٤٩١ — ٤٩٧هـ) الاستيلاء على مدينة جبلة^(٢) ، فأرسل إليها حملة تعرض فيها معظم افرادها للقتل أو الأسر ، بسبب أعمال الحيلة . ذلك عندما رأى حاكم المدينة أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بأبن صليحة اصرار الصليبيين على الاستيلاء على مدينته ، جعل بعض المسيحيين الوطنيين في جبلة يرسلون الصليبيين ، ويهونوا عليهم سهولة الاستيلاء عليها عن طريق مساعدتهم في النفاذ الى داخلها عبر أحد أبراجها ليلا . لذا أرسل بوهمند تلك الحملة ، فتوجهت الى اليرج المذكور في الرسالة ، وتسلمه رجالها بالحبال في ظلمة الليل بينما كان في انتظارهم ابو صليحة ورجاله ، كلما صعد منهم نفر قبض

(١) الانتصاري : المصدر السابق ، ص ٢٨ — ٢٩
 جبلة : مدينة بالشام ، تطل على الساحل ، وهي من اعمال اللاذقية ، وتقع بالقرب من مدينة حلب . راجع : البغدادي المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٢

عليهم وقتلهم وفي الصباح رمى رؤوس القتل فرحل من تبقى منهم^(١) . وهكذا مارس بعض القادة المسلمين أعمال الخيلة مع الصليبيين بعد مجيئهم الى الشرق الأدنى الاسلامي بزمن قصير ، وأنزلوا الخسائر بهم ، وأثبتوا لهم أنهم أمام عقلية عسكرية فذة .

استمر المسلمون في استخدام أعمال الخيلة في حروبهم مع الصليبيين ابان الفترة الزمنية موضوع البحث . ففي عام ٤٩٧هـ / ١١٠٤م قام معين الدولة سكرمان الأرتقي حاكم مارين وديار بكر — بعد أن انتصر على الصليبيين في العام نفسه^(٢) ، قام باستخدام الخيلة ، اذ جرد أسرى الفرنج الذين وقعوا في قبضته من ملابسهم ، وألبها عسكريه ، وأزكهم خيل الفرنج ، وقلدهم أسلحتهم ، وتوجه الى الحصون الصليبية المجاورة لمنطقة شيحان^(٣) ، وخرج اليه المدافعون عنها من الصليبيين ظنا منهم أن أصحابهم قد انتصروا ، فقبض عليهم ، وقتلهم ، وأخذ الحصون منهم^(٤) .

كما استخدم المسلمون الخيلة لاحداث الفرقة والتافر بين الصليبيين والبيزنطيين فعندما بدأت اليقظة العربية الاسلامية التي كان من بين روادها الأوائل مودود واقسنقر البرسقي ، تقوى وتشدت على يد عماد الدين زنكي حاكم الموصل وحلب ، رأى الصليبيون ضرورة تصفية الخلاف مع البيزنطيين ، والتحاليف معهم ضد المسلمين . وعندما بدأت القوتان المتحالفتان في مهاجمة بعض المدن الاسلامية في شمال الشام^(٥) عام ١١٣٨م/٥٣٢هـ لجأ عماد الدين الى الخيلة ،

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣١٠ — ٣١١ ، وايضا .

Albert d'Aix, historia hierosolymitona, in R.H.C.- H Occ. vol. pp. 582-583.

(٢) عن أحداث تلك المعركة ، وما قام به المسلمون من خدع عسكرية ، انظر الصفحات التالية .

(٣) شحان : منطقة تشرف على الجبال التي تحيط بمدينة بيت المقدس . راجع : اليفسادي - مرصد

الانطلاق على أسماء الامكنة والبقاع ، ج٣ ، القاهرة ١٩٥٤م ج٢ ، ص ٨٢٤ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٣٧٥ .

(٥) عن هذا التحالف ، وانجسوم على المدن الاسلامية راجع : ابن التلاص : دليل تاريخ دمشق بيروت

١٩٠٨م ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، أسامة بن منقذ : الاختيار ، تحقيق قليب حتى ، فرنستون ،

الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٣٠ ، ص ١١٣ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج١١ ، ص

٥٦ — ٥٧ ، وايضا .

فكان يرسل الى الامبراطور البيزنطى جناكومينوس John comnenus (١١١٨ — ١١٤٣م / ٥١٢ — ٥٢٨ هـ) يومه بأن الصليبيين خائفون منه ، وأنه لو فارق مكانه لتخلوا عنه ، ويرسل الى الصليبيين يخوفهم من الامبراطور البيزنطى ، ويقول لهم انه لو ملك حصنا واحد ملك بلادكم جميعاً^(١) ، وقد نفعت الحيلة وآتت أكلها ، اذ بدأ كل من المتحالفين يظن سوا في نوايا الآخر ، مما أدى الى فشل التحالف ، ورحيل الامبراطور البيزنطى عائدا الى القسطنطينية^(٢) .

أما عن نور الدين محمود فكان يكثر من أعمال الحيلة في صراعه مع الصليبيين ، فعندما رأى أنه كلما سير بعض قواته لفتح ماتبقى من امارة الرها ، استعان حاكمها السابق جوسلين الثانى ببنى جلدته من الصليبيين ، واحتمى بقلعه الحصينة ، وأنه أساء لنور الدين عند والد زوجته^(٣) لكل ذلك مال نور الدين الى أعمال الحيلة فاستحضر جماعة من امراء التركان ، ورغبهم كى يقوموا برصد تحركات الامير الصليبي^(٤) ، والقبض عليه^(٥) ، واحضاراً قتيلاً أو أسيراً ،

— William of Tyre. op. cit., vol. 11, pp. 93-94 Micheal le Syrian] chronique de Michael le Syrian.

Patriarche Jacobite d'Antioche (1166-1199). 3 vols.

Paris, 1905, vol. 111, p.245; Cinnamus. J. Eptiome historiarum, in Corpus scriptorum historiae Byzantinae. Bonn, 1836, PP. 18-20; Nicetas choniates,

historiarum in corpus scriptorum historiae Byzantinae, Bonn, 1835, PP. 37-40

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٥٨ .

William of Tyre, op., cit., vol. 11, PP 96-99; cinnamus. op. cit., PP, 23 - 24

(٢) كان جوسلين الثانى قد نجح بفضل موازنة اخوانه الصليبيين في تحقيق النصر على نور الدين محمود عام ١١٥٠م / ٥٤٦ هـ ، ووقع في يد جوسلين أمير سلاح دار نور الدين أسيراً ، كما استولى على سلاح نور الدين ، فسار جوسلين كل هذا الى الملك مسعود بن قلع أرسلان صاحب قزوين وقال له : هذا سلاح زوج ابنتك وسبايتك بعده ما هو اعظم . ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٥٤

William of Tyre, op. cit., vol., 11 p. 201. (٣)

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

(٥) ابن الأثير : نفس الموضع .

فكمن له التركان حتى خرج ذات يوم متصيداً^(١) ، فلحقت به طائفة منهم ، وظفروا به أسيراً^(٢) وتمكن ابن الداية — نائب نور الدين في حلب — من إحضاره الى سبته^(٣) ، فظل سجينا في حلب تسع سنوات ، حتى مات في عام ١١٥٤م/٥٥٤هـ^(٤)

ولما كانت مدينة دمشق تمثل الصخرة التي تحطمت عليها محاولات نور الدين لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية المتحدة ، بسبب ميل حاكمها مجير الدين أبق الى الصليبيين ، وتحالفه معهم^(٥) ، واستنجاهه بهم^(٦) كلما تقدمت اليها القوات الاسلامية لضمها الى الجبهة الاسلامية ، لذلك لجأ نور الدين الى أعمال الخيلة فراصل مجير الدين واستماله وأتخفه بالهدايا ، وأظهر له المودة حتى وثق به ، ثم صار يكتبه في بعض الأوقات ويقول له : « ان فلانا — ويذكر بعض الأمراء الذين في خدمة مجير الدين — قد كاتبني في تسليم دمشق »^(٧) وتلك الخيلة نجح نور الدين في بذور الفرقة بين مجير الدين وبين أمرائه ، إذ انقلب عليهم ، فتارة يجرد أحدهم من اقطاعه ، وتارة يقضى على البعض الآخر ، وظل الأمر على هذا الحال الى أن دخلت دمشق من معظم الأمراء ، وعندئذ قدم على مجير الدين أحد الامراء ويسمى عطاء بن حافض السلمى ، كان نور الدين يعلم مدى قوته ، وأنه لن يتمكن من دخول دمشق في وجود هذا الرجل ، فدكره من بين الأمراء الذين كانوا ، فقبض عليه مجير الدين ، وأراد قتله ، فقال له عطاء بن حافض : أن الخيلة

(١) Gregory the Priest, continuation of Matthew of Edessa's chronicle, in R.H.C. Doc. Arm., Vol. I, PP. 161 - 162

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٤) Michael the Syrian, op. cit., vol. 111, p. 295.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٩٧ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit., vol. 11, p. 149

(٧) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٤ .

قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول فلم يصغ الى قوله وقتله^(١) .
وهذا تكون الخطوة الأولى من حينئذ نور الدين قد نجحت ، وجعلت مجير الدين
يتخلص من غالبية أمرائه داخل المدينة . أما الخطوة الثانية فقد جاءت عندما
استغل نور الدين سخط العامة ورجال الحامية وتدمرهم ضد مجير الدين بسبب
ميله للصليبيين ، وبسبب الضائقة الاقتصادية التي كانت تعاني منها المدينة
وتذاك^(٢) . فراسلهم نور الدين واستألمهم ، فمالوا اليه ، ووعدوه بالمساعدة وتسليم
المدينة اليه^(٣) ، لما اشتهر به من العدل والديانة والاحسان^(٤) ، وبذلك ضمن نور
الدين المساعدة من جانب سكان المدينة في حالة اقتحامها . وأخيرا جاءت
الخطوة الثالثة والأخيرة من مراحل الخيلة عندما أرسل نور الدين قائدة أسد الدين
شركوه من قبله الى مجير الدين ، ولكن الأخير وأبى الخيل في صحة المبعوث ،
فلم يسمح له بدخول المدينة ، ولم يستقبله^(٥) ، فاعتبر نور الدين في ذلك اهانة
لمبعوثه ، وبدأ في الاستعداد لاقتحام المدينة . وفي صفر ٥٤٩هـ / أبريل ١١٥٤م
هاجمت قوات نور الدين أسوار دمشق^(٦) ، وفي الوقت نفسه ثار العامة الذين
راسلهم نور الدين في داخل المدينة^(٧) . وبوضوح كل من ابن القلانسي وأبو شامة
أن مجير الدين لم يكن مكروها من أهالي دمشق من المسلمين فحسب ، إنما أيضا
من غير المسلمين ، إذ يشركان الى أن امرأة يهودية قد ألقت بالحبل من فوق سور
المدينة فتعلق عليه بعض جنود نور الدين ، واعتلوا السور ، بينما أسرع نفر آخر
من أهالي المدينة بتحطيم أغلاق ابواب السور وتفتحها لدخول بقية العسكر^(٨) .
أما مجير الدين فعندما شعر بأن زمام الأمور قد بدأ يفلت من بين يديه ، استنجد

(١) أبو شامة : الروضين في أخبار الدينين الثوية والصلاحية ، ج ٢ في جلد واحد ، القاهرة
١٢٨٧هـ ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٢) ابن القلانسي المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٩٨ .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٩٨ .

(٨) ابن الفلاسني : المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٦ .

بالصليبيين وبلل لهم الأموال ، ووعدهم بتسليم قلعة بعلبك^(١) اليهم اذا هم ساعدوه لجعل نور الدين يرحل عنه ، فرحفوا لتجديته ، ولكنهم وصلوا بعد أن تسلم نور الدين دمشق ، فعادوا يخفى حين^(٢) .

لم تقتصر أعمال الحيلة لنور الدين عند هذا الحد ، انما كان أيضا يجادع ملجح ابن ليون الأرميني أمير قليقية (١١٧٠ — ١١٧٥م/٥٦٥ — ٥٥٧هـ) ويستميله حتى جعله في خدمته ، وكان يقاتل به الصليبيين ، وذلك لان بلاده كانت حصينة ، ووعرة المسالك ، وقلاعها منيعة ، وليس للمسلمين اليها طريق^(٣) ، فأقطع نور الدين اقطاعات في المناطق الاسلامية ولما قيل له في معنى استخدامه واعطائه الاقطاع من بلاد الاسلام قال : أعتمد عليه في قتال الصليبيين ، وأرغب بذلك عسكري^(٤) . ولايب أن نور الدين كان صائبا في هذا الاتجاه لأن الذي أهدى به ابن ليون مهما بلغت قيمته لايعادل تكلفة خروج القوات الي تلك المناطق وتحملها المشاق والعناء ، ومايلحق بها من اضرار .

كما استخدم نور الدين الحيلة العسكرية لاجبار الصليبيين لفك الحصار ومحاربة قواته ، فعندما ضعفت الدولة الفاطمية ، وتطلع كل المسلمين وعلى رأسهم نور الدين محمود ، والصليبيين وعلى رأسهم عموري الأول Amury I ملك بين المقدس الصليبي (١١٦٣ — ١١٧٤م / ٥٥٨ — ٥٦٩هـ) الى مصر للسيطرة عليها ،

(١) بعلبك : مدينة بالشام ، تقع بالقرب من مدينة دمشق ، على بعد مسيرة ثلاثة أيام منها وكانت مدينة حصينة على سفح جبل لبنان ، وتحيط بها سور عرضه عشرين شبرا ، وأرضها خصبة ، ويشق الماء وسطها . راجع : البخاري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧ — ٢٨ ، البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمراضع ، ج ٢ ، بيروت (بدون تاريخ) ج ١ ، ص ٢٦٠ ، الحميري : الروض المطار في خبر الاقطار ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., vol. 11, P. 204

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٨٧ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., vol. 11, pp. 332-340.

بأساليب مختلفة ، وطرق متعددة ، وجنوا من وراء ذلك ثمارا عديدة وتتحصر تلك الأساليب فيما يلي :

أولا : الكمائن : استخدم المسلمون الكمائن للتربص بالقوات الصليبية والانقضاض عليها ، وانزال الهزائم بها ، وكان فن إستخدام الكمائن له أسس يجب مراعاتها عند اختيار جند الكمائن وتحويلهم وأسلحتهم ، ومكان الكمين ، وما يجب عليهم عند بدء الكمين ، وتمثلت تلك الأسس في عدة نقاط :

(١) اختيار الجند :

يجب أن يختاروا من بين العارفين بأحوال الخيول وآلاتها ، ولديهم بعض المعرفة بشؤون السيطرة ، كمن يكونوا قادرين على اصلاح الآلات والأسلحة ، وعلاج الخيل حين تدعوا الضرورة الى ذلك ، وأن يكونوا ممن لهم دراية جيدة بركوب الخيل وحركاتها في الحرب ، وبمن لديهم صبر وجلد في السعى على الأقدام ، ومن العارفين بمواقع الدروب ومالكها والمدافعة ومحاوره الفرسان^(١) ، وألا يكون بأحد منهم علة^(٢) ، وأن يكونوا أشجع فرسان العسكر ، وأكثرهم دراية بشؤون الحرب ، وأعرفهم بالتجارب ، ذلك لأنهم ينفردون عن العسكر ويكونون في مكان ليس لهم فيه من يعينهم ولا يسجدهم ، ويجب أن يكون عليهم مقدم عارف بأمر الجروب ، عالم بأحوال الأماكن الصالحة للاختفاء^(٣) .

(٢) الخيول :

يجب ألا يكون بها علة^(٤) ، وتنقى من بين السوابق الجيدة ، سائلة الخوافر ، وتختار جميعها إما من الذكور أو من الاناث ، لأنه لو اجتمع الذكور مع الاناث

(١) الأنصاري : المصدر السابق ، ص ٤٢

(٢) المرثي : المصدر السابق ، ص ٥٠

(٣) الأنصاري : المصدر السابق ، ص ٧١

(٤) المرثي : المصدر السابق ، ص ٥٠

وتواترت الحملات الإسلامية والصليبية على مصر^(١) ، وجرت بينهما كثير من المعارك ، ومنها ما حدث عندما أرسل نور الدين عام ١١٦٩ / ٥٥٩ هـ حملته الأولى على مصر بقيادة قائده أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين لمساندة الوزير الفاطمي شاور . ولكن الأخير تراجع عن عهوده ، وتكرّر لأسد الدين شيركوه ، فما كان من قائد نور الدين إلا أن توجه إلى مدينة بليس واعتصم بداخلها ، عندئذ استجد شاور بالملك الصليبي عموري ، الذي لبى النداء ، وقدم على وجه السرعة ، وشارك بقواته مع جيش شاور في حصار مدينة بليس وبداخلها قوات نور الدين . وعندئذ لجأ الأخير إلى أعمال الحيلة ، فهاجم قلاع الصليبيين في بانياس وطبقة ، وجمع أعلام الصليبيين وراياتهم وأرسلها مع أحد رجاله إلى أسد الدين شيركوه لادخالها إليه خفية ، وطلب منه أن يرفعها على أسوار مدينة بليس ، فلما رأى الصليبيون تلك الأعلام والرايات خافوا على أملاكهم ، وانزعجوا ، وعجلوا بالرحيل إلى الشام^(٢) .

وهكذا يتضح من العرض السابق أن المسلمين قد قاموا بأعمال الحيل العسكرية ضد الصليبيين بعد وصولهم إلى الشرق الأدنى الإسلامي بسنوات قلائل ، وظنوا على استخدامها أثناء الصراع الصليبي الإسلامي ، وحققوا من وراء ذلك مكاسب عديدة سواء أكانت استعادة بعض المدن الإسلامية ، أو ضمها للجهة الإسلامية المتحدة بعد حركة اليقظة في بواكير القرن السادس الهجري (بدايات القرن الثاني عشر الميلادي) أم بالقبض على بعض القادة الصليبيين ، أم بإجبار الفرنج على فك الحصار عن المدن الإسلامية .

أما عن الخدع العسكرية فقد استخدمها المسلمون أثناء صراعهم مع الصليبيين

(١) عن تلك الحملات راجع : ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠ ، ٣٢٤ — ٣٢٧ ، ٣٣٥ — ٣٤٢ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit. VOL. III, PP. 332 - 340

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit., vol. III, PP. 295 - 300

Michael the syrian Op. cit. VOL. III, PP. 332 - 333

ربما أوجب ذلك ائارة جلبة من صهيل الخيل أوصياحها ، فيؤدي إلى العلم
بالكمين^(١) ، كما يجب ألا يكون فيها حرن أو جراح^(٢) .

(٣) الأسلحة :

يجب أن تحفظ غالية الأسلحة في جماب أو حقائب جلدية حتى لا تحدث
خشخشة أو أصوات يستدل منها الأعداء على مكان الكمين^(٣)

(٤) مكان الكمين :

يجب أن يكون موضع الكمين خلفا مسترا ، وأن يكون مما يحتمل الإقامة
فيه إذا دعت الحاجة إلى طول الإقامة ، بأن يكون فيه الماء والمرعى وصائر
ما يحتاج إليه الكمناء قدر الإمكان^(٤)

(٥) ما يجب على المكمين عند بدء الكمين :

أول ما يجب عليهم أن يختاروا من بينهم رجلا ممن يوثق به ويتحقق بصيبته ،
حتى إذا كان خلاف ذلك ، ربما يميل إلى الأعداء ، ويدلهم على الكمين ، وتكون
مهمته رصد تحركات الأعداء والابلاغ ، وعلى المكمين أن يتجنبوا التعرض للصيد
من الطير أو الحيوان ، حتى لا يتجسس عنه نفاخ الطير أو الحيوان فيستدل على ذلك
أهل البصرة من الأعداء ويعلموا بالكمين ، ويتعين بأن يكون وقت ظهور الكمين
في حال غفلة الأعداء ، وذلك عند حطهم عن دوابهم وإزاحتها ، ويختاروا الأوقات
المناسبة كأحر ساعة في الصيف ، وأبردها في الشتاء ، وإذا لم يظفروا بما يغته
الأعداء ، فعليهم الإسراع بالعودة إلى مكنتهم^(٥) .

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٢٠ .

(٢) المرثي : المصدر السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) المرثي : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٤) الأنصاري : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(٥) الأنصاري : المصدر السابق ، ص ٧٢ ، المرثي : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

استخدم المسلمون أسلوب الكمان في الخيل العكوبة منذ قدوم الصليبيين
 إلى الشرق الأدنى الإسلامي، ففي أثناء الحصار الصليبي لمدينة أنطاكية عام
 ١٠٩٧/٥٩٠هـ، تطلت جماعات من الحامية الإسلامية إلى خارج المدينة،
 ونصبت الكمان للصليبيين الذين ابتعدوا عن معسكرهم أمام أنطاكية، ونجحت
 إحدى الجماعات في أن تنصب كميناً للفرقة الصليبية التي كان يقودها كل من
 الأميرين الصليبيين ريموند النورماندي وريموند الصنجيلي، وأنزلت بقواتها الهزيمة،
 فمر الأميران مذعورين، وعادا إلى المعسكر الصليبي^(١).

وإذا كان أسلوب الكمان له نمط واحد، فإن المسلمين قد طبقوه أثناء
 صراعهم بأساليب مختلفة. فعندما علم المسلمون مدى معاناه الصليبيين لنقص
 المؤن لديهم أثناء حصارهم لحصن الأكراد^(٢) في عام ١٠٩٩/٤٩١هـ. فتح
 المدافعون عن الحصن أحد الأبواب ودفعوا ببعض الماشية، فانشغل الصليبيون
 بمطاردتها، والامساك بها، بينما انقض كمين من المسلمين خارج الحصن على
 الصليبيين بقيادة أميرهم ريموند الصنجيلي، فأتزلوا بهم الهزيمة، وكادوا يظفرون
 بأسرهم، بعد مقتل معظم قواتهم^(٣)، وبذلك يتضح أن الأمير الصليبي ريموند قد
 واجه الهزيمة على يد المسلمين في حادثتين، استخدم فيهما المسلمون خدعة
 الكمين. ولكن بأسلوب مختلف وفي ظروف مختلفة.

استمر المسلمون في استخدام خدعة الكمان في ظروف مختلفة استغلوها
 لانزال الخسائر بالصليبيين. فعندما شرع الصليبيون في حصار مدينة بيت

(١) Raimondi d'Aguilers, Historia Francorum qui aperunt Jerusalem, in R.H. C.-H. Occ. Vol. III, Paris 1866. P. 248

D'Albheri d'Aix, Op. cit., PP. 383-384

(٢) حصن الأكراد. حصن يقع غرب مدينة حمص، وعلى جبل الجليل النصل جبل لبنان. راجع
 أبو العلاء: تقويم البلدان، باريس ١٩٨٠، ص ٢٥٩ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٨،
 القاهرة ١٣٢٤، ج ٧، ص ٦٤، البنادي: المصير السابق، ج ١، ص ٤٦.

(٣) حسن حشبي: أعمال الفرنجة وحصان بيت المقدس، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٠٩ وأيضاً:
 Raimondi d'Aguilers, op. cit., pp. 273-274

المقدس في عام ١٠٩٩م/٤٩٢هـ أُخْلُوا يعانون من قلة المياه ، فاستغل المسلمون تلك المعاناة ووضعوا الكمائن على طول الطريق الممتد من المعسكر الصليبي ، وحتى ينابيع المياه على مسافة ستة أميال وقد نجحت تلك الكمائن في قتل كثير من الصليبيين الذين توجهوا للحصول على المياه^(١) كما إتهز المسلمون جهل الصليبيين بالمسالك والدروب ، ونصبوا لهم كميناً في العام نفسه عند مدينة الرملة ، وقتلوا الكثير منهم^(٢) ، وأيضاً إتهز طفتكين حاكم دمشق توجه بعض الصليبيين الذين ضربوا الحصار حول مدينة صور عام ١١١١م/٥٠٥هـ إلى المناطق القريبة من المدينة لجمع الاعلاف لحيوتهم ، فنصب لهم كميناً ، نتج عنه قتل بعض فرسانهم ، ووقوع البعض الآخر في الأسر^(٣) .

لم تشر أعمال الكمائن في أحداث الخسائر في الجانب الصليبي فحسب ، إنما ساعدت أيضاً في أسر أعداد كبيرة من فرسانهم ، فعندما حاول الملك الصليبي بلدوين الأول Baloduin I (١١٠٠ — ١١١٨م — ٥٠٤هـ — ٥١٢هـ) التصدي لهجمات مودود أتاتك الموصل ، والذي كان يسعى آنذاك جاهداً لتوحيد الجبهة الإسلامية ومعه طفتكين حاكم دمشق ، ومآرع الملك الصليبي بالتوجه بقواته في عام ١١١٣م/٥٠٧هـ إلى المنطقة التي تقع جنوب غرق بحيرة طبرية ، والمعروفة بحجر الصخرة ، وقد نصبت القوات الإسلامية كميناً للصليبيين فنجح في أسر معظم قوات الملك الصليبي ، بينما تمكن بلدوين من الفرار بصعوبة بالغة^(٤) .

(١) حسن حسبي : المرجع السابق ، ص ١١٥ ، وأيضاً :

Raimondi d'Aguilers, op. cit, p. 293

(٢) حسن حسبي : المرجع السابق ، ص ١١٩ ، وأيضاً :

Raimondi d'Aguilers, op. cit, pp. 294-295

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ، ص ٤٨٨ ، وأيضاً :
Albert d'Aix, op. cit., pp. 492-493

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ، ص ٤٩٦ ، وأيضاً :

Fulcher of Chartres A History of the Expedition of Jerusalem (1095 - 1127),
Tennessee U.S.A., 1969, p. 190; William of Tyre, op. cit., VOL.I, P. 306

«جدير بالإشارة ، أن أعمال الكمائن ضد الصليبيين لم تكن قاصرة على القوات العسكرية فحسب ، وإنما شاركت فيه أيضا القبائل العربية ففى عام ١١١٩م/ ٥١٣١هـ قام جوسلين دى كورتناى Joscelyn de Courtenay حاكم إمارة الرها (١١١٨ - ١١٣١م / ٥١٨ - ٥٢٦ هـ) ، ومعه اثنان من كبار بارونات الجليل وهما الأخوان جودفرى Godfrey ووليم دى بيورى William de Bury ، قاموا بشن الغارات على طائفة من طلى يعرفون ببني خالد وبني ربيعة ، أقاموا فى المنطقة الواقعة شرق الأردن ، وقد بدأ الصليبيون ببني خالد ، فهاجموهم واستولوا على مامعهم ، وعزموا القصد أن يبادروا بني ربيعة فى صباح اليوم التالى بالمهجوم ، فما كان من بني خالد الا أن أخرجوا اخوانهم بأبناء المهجوم الصليبي ، فاستعدوا له ، ونصبوا كميناً للصليبيين ، ومجحوا من خلاله فى أسر غالبية القوة الصليبية وقوامها مائة وخمسين فارساً كان من بينهم وليم دى بور وأخوة جود فرى ، بينما ضل جوسلين الطريق ، ولما بلغه خبر الواقعة ، عاد مسرعاً الى طبرية^(١) . وإذا كان هذا الكمين قد آتى ثماره ، الا أننا يجب ألا ننسى أن اخبار بني خالد اخوانهم بالمهجوم الصليبي هو الذى دفع بني ربيعة فى اعداد الكمين .

هذا عن خدعة الكمين التى طبقها المسلمون سواء أكانوا من الفرق العسكرية أم من رجال القبائل ضد الصليبيين ، ومجحوا من خلالها فى إحراز النصر عليهم ، أما عن بقية أنواع الخدع العسكرية فتمثل فيما يلى :

ثانياً : الإرتداد الظاهرى :

أتاحت خفة الحركة للفرسان المسلمين القيام بأنواع مختلفة من الخدع العسكرية ، ومن بينهما خدعة الإرتداد الظاهرى التى كان يصحبها عادة نصب الكمائن ، اذ كانت بعض فرق الجيش الاسلامى تتظاهر بالهزيمة وتقوم الإرتداد لدفع المهاجمين الصليبيين الى ملاحقتهم ، والتوجه الى مكان الكمين ، فيم الاطباق عليهم . وقد مارس المسلمون هذا النوع من الخدع العسكرية

(١) ابن الأثير : المعبر السابق ج ١٠ ص ٥٥٥ - ٥٥٦ ، ابن العديم : المعبر السابق ج ٢ ، ص ١٩٤ .

بأساليب مختلفة . ففى عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ هاجم الصليبيون مدينة جبلة ، ونجحوا فى احداث ثغرات فى سورها ، فخرج اليهم أبو صليحة حاكم المدينة بجماعة من جيشه عن طريق باب المدينة وأخذ يقاتلهم ، وتظاهر بالهزيمة والإرتداد ، فأخذ الصليبيون بلاحقونه ، وفى تلك اللحظة كان الجيش الرئيسى لأبى صليحة قد خرج من المدينة ، وأطلق على الصليبيين من خلفهم وأحرز النصر عليهم^(١) .

كان لخدعة الإرتداد الظاهرى الفضل الأكبر فى انتصار المسلمين على الصليبيين فى معركة حران^(٢) عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ . إذ التقى الجيشان الإسلامى والصليبي فى السهل الشاسع الذى يقع جنوب نهر البليخ^(٣) .

بما منح المسلمين أرضامستوية شاسعة كمن يمارسون عليها خدعهم العسكرية إذ تظاهرت ميمنة جيش المسلمون بالهزيمة ، وأخذت فى الإرتداد فظنت مسيرة الجيش الصليبي وعلى رأسها جوسلين دى كورتناى حاكم الرها أن النصر على المسلمين بات وشيكاً ، فأخذت تطارد الميمنة الإسلامية الى أن انفصلت عن بقية الجيش الصليبي حتى اقتربت من موضع كمين القوات الإسلامية بالقرب من مجرى النهر ، وعندئذ خرج رجال الكمين وواجهوا المسيرة الصليبية ، بينما استدارت ميمنة الجيش الإسلامى ، فأطبق المسلمون على الصليبيين ، وأرزلوا بهم القتل والأسر ، أما بقية الجيش فأصبحت مهمته سهلة — بعد أن إنكشفت مسيرة الجيش الصليبي — من احراز النصر على بقية الصليبيين^(٤) وهكذا كانت

(١) زين الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣١١ ، وأيضاً :

Albert d'Aix, op. cit., p. 583

(٢) حران : هناك عدة مواضع تحمل هذا الاسم ، والمقصود هنا المدينة التى تقع بالقرب من الرها عند ملتقى الطرق لى شرق الفرات ولاسيما عترة الشام وشرق الجزيرة ، راجع : باقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .

(٣) البليخ : نهر بالقرنة يمنع فيه الماء من عبور أعظمتها عين يقال لها الذهبانية فى أرض حران ، راجع باقوت الحموى : المصدر السابق ج ١ ، ص ٣٧٤ ، البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣٧٣ — ٣٧٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ، وأيضاً :

خفة الحركة ووجود أرض سهلة متسعة قد مكنت المسلمون من القيام بخدعة الإرتداد الظاهري لأغراء الصليبيين على التوجه الى مكان الكمين ، وكان من نتائج تلك المعركة ابادة معظم الجيش الصليبي الذي كان قوامه — على حد قول المؤرخين الغربيين فوشيه دى شارتر وألبرت الأخيى — حوال عشرة آلاف محارب^(١) ، وتم أسر العديد من القادة الصليبيين على رأسهم الملك الصليبي بلدوين الأول ، وجوسلين حاكم أمانة الرها^(٢) .

لم يقف الصليبيون مكتوف الأيدي أمام تلك الخدع العسكرية ، إنما تنهوا لها ، وعملوا على الحيلولة دون نجاح المسلمين في تحقيقها ، فعندما جرت الاشتباكات بين قوات تنكريد Tancred أمير أنطاكية (١١٠٤ — ١١١٢ م / ٤٩٨ — ٥٠٦ هـ) وبين قوات رضوان بن تنش حاكم حلب (٤٨٩ — ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ — ١١١٣ م) في عام ١١٠٥ م / ٤٩٨ هـ ، قام الصليبيون باستدراج القوات الاسلامية الى المنطقة الصخرية في غربي مدينة حلب ، كى لا يستطيع المسلمون التحرك بخفة في تلك المنطقة ، وممارسة أعمال الخدع العسكرية ، لذا انتهت المعركة في غير صالح المسلمين^(٣) . والتساؤل الذى يفرض نفسه بعد تلك الحادثة هو : هل أثرت تلك الهزيمة على المسلمين ، وجعلتهم يقلعون عن ممارسة خدعة الإرتداد الظاهري ؟

■ William of Tyre, op. cit. vol. I, P. 459;

Albert d'Aix, Op. cit., pp. 614-616

(1) Fulcher of Chartres, op. cit., pp. 177 - 178; Albert d'Aix, op. cit., P. 614.

(2) Michael the Syrian, op. cit., vol 111, p. 165

Radulph of Caen, Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expedition Hierosoly mitana, in R.H.C. -H. Occ., vol. 111, p. 710

(٣) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ، ص ١٥٠ — ١٥١ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., pp. 612 - 622;

Radulph of Caen, op. cit. pp. 714 p- 715.

لم تؤثر هزيمة المسلمين عام ١١٠٥م / ٤٩٨هـ على ممارستهم لخدعة الإرتداد الظاهري ، إنما استمروا في القيام بها ضمن خططهم العسكرية بل استخدموها ضد القوات الصليبية بقيادة الملك الصليبي بلدوين الأول وجوسلين دي كورتناي حاكم الرها بعد أن تم اطلاق سراحهما ، والذين سبق أن انهزما بفضل قيام المسلمين بتلك الخدعة . ففي عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ التقى الجيشان بالقرب من بحيرة المدينة ، ونجح المسلمون في إستدراج القوات الصليبية الى موضع الكمين بالقرب من جسر الصيرة^(١) ، وأحرزوا النصر عليهم وهذا يدل على أن المسلمين استخدموا أساليب مختلفة لأغراء الصليبيين على ملاحقتهم الى موضع الكمين .

ومن بين تلك الأساليب التي قام بها المسلمون لانهاج خدعة الإرتداد الظاهري ما جرى عام ١١١٥م / ٥٠٩هـ عندما التقى الجيش السلجوقي بقيادة برسق بن برسق ، والقوات الصليبية بقيادة روجر Roger أمير أنطاكية (١١١٢ — ١١١٩م / ٥٠٦ — ٥١٣هـ) ومعه بونز Pons أمير طرابلس (١١١٣ — ١١٣٧م / ٥٣٢ — ٥٠٧هـ) ، والملك الصليبي بلدوين الثاني (١١١٨ — ١١٣١م / ٥٢٦هـ) أمام مدينة كفرطاب^(٢) ، والتي كانت آنذاك بحوزة الصليبيين ، بينما كانت قوات برسق تحاصرها في محاولة لاستردادها ، وعندما رأى برسق تلك الحشود الصليبية الضخمة تظاهر بفك الحصار حول كفرطاب ،

(١) عن أحداث تلك المعركة راجع ناسق .

(٢) كفرطاب : بلدة في الشام ، تقع بين مدينة معرة النعمان وبين معرة النعمان راجع : البغدادي . المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١١٧ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥١٠ ، ابن العديم : المصدر السابق ج٢ ، ص ١٧٤ — ١٧٥ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., pp. 501 - 353;

Fulcher of Chartres, op. cit., pp. 211 - 212;

Albert d'Aix, op. cit., p. 701

والعودة الى اقليم الجزيرة ، فظن الملك الصليبي بلدوين ومعه بونز وروجر أن الخطر قد زال ، فعاد كل منهم الى منطقة نفوذه ، بينما استدار برسق في سرعة فائقة وهاجم كفرطاب ، ونجح في إستردادها^(١) .

أنزلت تلك الخدعة العسكرية الخوف والهلع في قلوب الصليبيين وجعلتهم يتوقعون أن يقوم المسلمون بها في معظم معاركهم معهم ، ومن ثم أخذوا يتوخون الحذر في ملاحقة المسلمين خوفا من الوقوع في الكمائن ، ففي عام ١١٥٨م/٥٥٣هـ جرت المعركة بين قوات نور الدين محمود ، وبين القوات الصليبية بقيادة ملكهم بلدوين الثالث (١١٤٤ - ١١٦٢م/٥٣٩ - ٥٥٨هـ) بالقرب من بحيرة طبرية ، وكان النصر في تلك الواقعة حليف الصليبيين إذ أخذت القوات الاسلامية في التراجع ، بينما خشي الصليبيون أن يكون ذلك التقهقر دربا من دروب الخدع العسكرية المعهودة عند المسلمين على أنفسهم في معاركهم مع الصليبيين ، فتواجهوا عن متابعة الفلول الاسلامية وضيعوا على أنفسهم فرحة احراز النصر على المسلمين ، واستغلال حالة الاضطراب التي عمت صفوفهم ، وذلك خوفا من الوقوع في الكمين^(٢) .

استمر المسلمون في ممارسة خدعة الأتعداد الظاهري ، بالرغم من أن الصليبيين قد فطنوا لها ، وحذروا منها ، فبينما كان السباق على أشده بين قوات نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه ، وبين الصليبيين بقيادة ملكهم عمورى الأول للفوز بضم مصر في وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية في طور الاحتضار قام نور الدين بدوره في مهاجمة الممالك الصليبية في الشام لدفع الصليبيين الى سرعة العودة ، والرجيل عن أرض مصر للدفاع عن ممالكهم^(٣) . إذ هاجم نور الدين في عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ حصن حارم ، والذي كان آنذاك بحوزة الصليبيين ، وبخضع لسيطرة يوهنن الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣ - ١٢٠١م/٥٥٨ - ٥٥٩هـ) فاستجد يوهنن بريموند الثالث Raymond III أمير طرابلس (١١٥٢ - ١١٨٧م/١١٨٧)

(١) ابن اقلناسى المصدر السابق . ص ٢٥٢ ، وأيضا .

Williams of Tyre, op. cit., vol. II, pp. 271-272

(٢) ابن الأثير . مصدر السابق . ج ١١ . ص ٣٢

٥٤٧ — ٥٥٨٢) ، وثورس الثاني Thoros II أمير أرمينية (١١٤٤ — ١١٦٧/٥٣٩ — ٥٦٢هـ) ، قسطنطين كولومون Constantin Colomon القائد البيزنطى فى قليقية ، وتوجه بتلك الحشود الصليبية لمواجهة قوات نور الدين ، واصطف الفريقان للقتال واتفق المسلمون على أن تتظاهر ميمنة جيشهم بالهزيمة ، وتقوم بالانسحاب حتى تجلب فرسان الصليبين خلفها ، فيتعدوا عن المشاة^(١) . وعندما بدأت المعركة ، نفذت قوات الميمنة الاسلامية ما دبروه من خدعة ، فلما ابتعد فرسان الفرنج عن المشاة ، هجم بقية الجيش الاسلامى على المشاة وابادوهم ، وعندما أهقن الفرسان خطورة ابتعادهم عن المشاة ، استداروا لنجدتهم ، ولكن بعد فوات الأوان . اذ استدارت الميمنة الاسلامية هى الاخرى ، وأصبح الفرسان محاصرين بين القوات الاسلامية وعجزوا عن الفرار وأكثر فيهم المسلمين القتل والاسر ، فكان من جملة الاسرى يوهند ، وريموند وقسطنطين كولومون، بينما نجح ثورس فى الفرار من أرض المعركة^(٢) .

وإذا كان نور الدين قد حقق الظفر على الصليبين فى الشام باستخدام تلك الخدعة ، فان قائده أسد الدين شيركوه قد أصاب نفس النجاح على أرض مصر ، باتباع الخدعة نفسها ، مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليها . فعندما تجمع الجيش الصليبي بقيادة الملك عمورى الأول ، ومعه جيش الوزير الفاطمى شاور ، لمواجهة قوات أسد الدين شيركوه عام ١١٦٧/٥٦٢هـ التقى الجمعان فى منطقة الصعيد عند موضع يسمى بالباين عندما اصطف الفريقان للقتال ، عرف شيركوه أن حملة الصليبين ستكون على القلب ظنا منهم أنه يتولى قيادته ، لذا وضع الانقال فى القلب ، وجعل ابن أخته صلاح الدين على قيادته ، وطلب منه أن يتظاهر

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٣ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٣ — ١٣٤ ، ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ص

١٤٥ ، وأيضاً .

Williams of Tyre, op. cit., pp. 307 - 308

Michael the Syrian, op. cit., vol. 111, p. 324

بالمهزبة والارتداد عند حملة الفرنج عليه ، وبظل و الارتداد ولا يقاتلهم ، فاذا عادوا منه عليه بالرجوع و أعقابهم ، بينما اصطحب شركوه جماعة من خيرة فرسانه ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقاتلت الطائفتان ، جرى ماتوقعه شركوه اذ حمل الفرنج على القلب ، وأخذوا في ملاحقة قوات صلاح الدين ، فحمل شركوه على من تبقى من جيش الفرنج وشاور ، وأكثر فهم القتل والأسر ، فلما شعر الملاحقون من الفرنج بذلك ، عادوا مسرعين ، فأطبق عليهم المسلمون وأحرزوا النصر عليهم^(١) .

ثالثا : الهجوم القوي :

ومن الخدع العسكرية الاسلامية أيضا ما يعرف بالمهجوم القوي وذلك بأن تظاهر القوات الاسلامية بالمهجوم على منطقة لتحويل أنظار الصليبيين عن الهجوم الرئيسي ، ففي عام ١١١٩م/٥١٣هـ كانت الوقعة بين القوات الصليبية بقيادة روجر أمير أنطاكية وبين القوات الاسلامية بقيادة اليفغازي الأرتقي ، اذ تقدم الفرنج الى المنطقة الجبلية شمالي قلعة الأتاب^(٢) ، وظنوا أن أحدا لا يسلك اليهم لضيق الطريق ، وخذلوا الى السكون ، وراسلوا اليفغازي يقولون له لاتعب نفسك بالمسير الينا ، فحن واصلون اليك^(٣) وأراد اليفغازي أن يحول أنظار الصليبيين عن تقدم قواته لتطويقهم ، فأرسل سراياه لمهاجمة قلعة الأتاب^(٤) فظن الفرنج أن المسلمين قد تمولوا عنهم لهجوم آخر ، فلم يشعروا الا والقوات الاسلامية قد غشبتهم ، وأحاطوا بهم من جميع الجهات ، وحملوا عليهم ضربا بالسيوف ورشقا بالسهام ،

(١) قلعة الأتاب : في شمال الشام ، وتقع بين مدينتي حلب وأنطاكية ، راجع : بالقرن الحصري : المصدر

السابق ج١ ص ١١٤ ، البغدادي : المصدر السابق ج١ ص ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٥٩

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٨٨

فلم يفلت منهم سوى نفر يسير ، بينما كان الباقي بين قتل وأسير ، وكان من جملة القتلى روجر حاكم أنطاكية^(١) .

أثمرت خدعة الطنجوم الحموي أيضا بنجاح المسلمين في استرداد مدينة الرها من أيدي الصليبيين ، فعندما أراد عماد الدين زنكي استعادة المدينة من حاكمها الصليبي جوسلين الثاني رأى أنه متى خرج لقصده محاصرتها اجتمع فيها الفرنج ، ودافعوا عنها ، فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة^(٢) ، وأنه لاينال منها غرضاً مادام جوسلين بها ، فلجأ إلى أعمال الخداع كي يغري جوسلين على الخروج منها^(٣) ، فظاهر بانشغاله بمهاجمة الأرتقة في دياربكر ، ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصده ديارهم فلما اطمأنوا وشارك جوسلين الرها ، جاءت عيون زنكي إليه فأخبرته^(٤) فجمع القوات وسار تجاه الرها في جمادى الآخر ٥٣٩هـ/نوفمبر ١١٤٤م وصوب الحصار حولها لمدة أربعة أيام ، فيس من بداخلها من وصول التجذات اليهم ، وفاموا بعدة محاولات لفك الحصار ، انتهت بالفشل ، وتجماع القوات الاسلامية في دخول المدينة^(٥) ، وكانت الرها أول حاضرة امارة

(١) ابن القلاسي: المصدر السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٥٥٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ وأيضاً .

William of Tyre, op. cit., vol.1, pp. 523 - 526.

Albert d'Aix, op. cit., p. 683;

Fulcher of Chartres: op. cit., pp. 227 - 231

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٩٨

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٥) ابن القلاسي : المصدر السابق ، ص ١٩ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢٧٨ -

٢٧٩ ، ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٣ - ٩٤ وأيضاً .

William of Tyre; op. cit., vol II, pp. 140 - 143.

Michael the Syrian, op. cit., vol. III, pp. 259 - 263

Roger of Wendover, The Flowers of History, 2 vol., London, 1868, vol II, pp. 163 - 165

صليية يستردها المسلمون ، وفي الوقت نفسه حاضره أول إمارة أقامها اللاتين في الشرق الأدنى الإسلامي .

سار نور الدين محمود على نهج أبيه عماد الدين زنكي في العمل على توحيد كلمة المسلمين وجهتهم أثناء صراعهم مع الصليبيين ، كما سلك درب أبيه في اتباع الحيل والخدع العسكرية في معاركه مع الفرنج ، ومنها اتباع خدعة الهجوم التأمي . فبعد أن فتح مدينة حارم عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ ، أراد أن يفتح مدينة باناس ، وكانت آنذاك بحوزة الفرنج ، فقام باتباع تلك الخدعة وأظهر أنه يريد طرية ، فتوجهت أنظار الفرنج اليها ، وعملوا على حفظها وتقويتها ، عندئذ سار نور الدين الى باناس لعلمه بقلة من فيها من الحماة ، بعدما قتل معظم فرسانها في معركة حارم السابقة^(١) ، فنازها ، وضيق الحصار عليها ، حتى أحرز النصر على من بداخلها ، وأعادها من أيدي الفرنج^(٢) .

وهكذا حقق المسلمون النصر على الصليبيين باتباع تلك الخدعة ، وتبحروا في استعادة كثير من المدن الإسلامية التي سبق أن استولى عليها الفرنج في وقت بدأ فيه ميزان القوى في الصراع الصليبي الإسلامي يتبدل — بعدما كان في صالح الصليبيين ، وذلك بفضل الجهود التي بذلها رواد الوحدة الإسلامية : مودود ، وزنكي ، ونور الدين محمود . ولا شك أن الصخرة الإسلامية كانت عاملا له وزنه في انجاح الخدع الإسلامية .

رابعا : استغلال الظواهر الطبيعية في العمليات العسكرية :

فجح المسلمون في الاستعادة من الظواهر الطبيعية العديدة ، واستغلوا لخدعة الصليبيين ، وحرارز النصر عليهم ، ففي عام ١١٢٢م/٥١٦هـ التقت القوات

(١) عن تلك الحركة راجع ما سبق ص ٢٥ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٤ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص

٣٢١ ، أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٩ ، وأيضا :

الإسلامية بقيادة ملك غازي بن بهرام صاحب خرزيت، بالقوات الصليبية بقيادة جوسلين دي كورتيناى حاكم إمارة الرها بالقرب من بلدة سروج^(١) واستغل المسلمون هطول الأمطار على السهل القريب من تلك المنطقة ، وأحالتهم إلى أرض رديئة ، فعملوا على جذب الصليبيين إلى تلك المنطقة الموحلة لعلمهم أن الصليبيين لم يعتادوا على القتال فوق سطح تلك الأراضي ، ونجحت الخدعة الإسلامية ، وأحرز المسلمون النصر على الصليبيين ، بفضل خفة حركة المحاربين المسلمين من جهة ، واعتيادهم على القتال على الأراضي الموحلة من جهة أخرى ، وكان من نتائج تلك المعركة وقوع جوسلين الثاني أسيرا في قبضة ملك بن بهرام^(٢) .

استغل المسلمون الظاهرة نفسها ولكن بأسلوب مغاير ضد الصليبيين في مناسبة أخرى ، فعندما حاول الملك الصليبي عمورى الأول غزو مصر عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ ، تصدى له الوزير الفاطمي ضرغام عند بليس ، واستغل فيضان النيل وقتذاك ، فحطم السدود ، فأغرقت المياه المناطق المحيطة وقتل البعض الآخر ، كما قامت القوات الإسلامية بإدخال التغيرات بين الحين والآخر على تلك الخدعة العسكرية ، مما جعلها تكرر وتكرر في الصراع الإسلامي الصليبي وتقوم بها القوات العسكرية الإسلامية ، وأيضا القبائل البدوية ، لانزال الخسائر بالصليبيين .

وبالنسبة لخدعة الارتداد الظاهري ، فقد طبقها المسلمون بأساليب مختلفة ونجحوا عن طريقها في إحراز النصر على الصليبيين في العديد من المعارك ، كان أشهرها على الإطلاق معركة حران عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ والتي أيدت فيها غالبية القوات الصليبية مما جعل الصليبيين يحدرون تلك الخدعة العسكرية الإسلامية ، ويضعون المراقيل في سبيل نجاحها .

(١) سروج بلدة في منطقة الجزيرة لغربية ، تقع بالقرب من مدينة حران والبيضاء . انظر : نبيذ دى

مصادر السابق . ج ٢ . ص ٧١ .

(٢) دج تخلصي حفيد نسبي . ص ٢٠٣ . بر الأبي . فصل السدود ج ١ ص ٥٩٣ . بر

لعدم . ص ٢٣ . ص ٢٣ .

ومن الخدع العسكرية الاسلامية أيضا ما يعرف بالهجوم الترميى الذى نجحوا عن طريقه فى استعادة العديد من المدن الاسلامية التى سبق أن استولى عليها الصليبيون كان أعظمها على الإطلاق مدينة الرها . وأوضحنا مدى نجاح المسلمين فى استخدام الظاهرات الطبيعية كالنظر والجبال والأنهار فى الخدع العسكرية ضد الصليبيين ، وما حققوه من ورائها من نتائج .

وما هو جدير بالإشارة أن الخيل والخدع العسكرية الاسلامية فى الصراع الاسلامى الصليبي لم تتوقف بوفاء رائد الوحدة الاسلامية نور الدين محمود حتى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ وإنما استمرت فى عهد صلاح الدين مؤسس الدولة الايوبية وخلفائه من بعده كما مارسها المماليك فى صراعهم مع الصليبيين الى أن تم رحيلهم عن الشرق الأدنى الاسلامى بعد سقوط اخر معاقلهم فى عكا عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ .

وإذا كان المسلمون قد تفوقوا على الصليبيين فى الخيل والخدع العسكرية ، فلا يرجع ذلك الى صفات تميزوا بهم عنهم كالجرأة والشجاعة والاقدام والمغامرة فحسب ، ولا يرجع أيضا الى إجادتهم لفن الحرب والقتال والتكتيك العسكرى فقط ، وإنما يرجع — فضلا عما تقدم — الى معرفتهم التامة بجغرافية بلادهم وطبوغرافيتها وبمساكها ودروبها بينما كان خصومهم يجهلون جغرافية منطقة الشرق الأدنى ، كما يرجع الى خفة حركتهم وخفة لباسهم فى منطقة تتميز بحوها الحار ، بينما كان أعدائهم يزرعون تحت ملابسهم الحديدية الثقيلة ويخوذاتهم وحيادهم الضخمة التى لاتصلح لحرب الكر والفر والتى أتاحت للمسلمين نصب شباكهم للايقاع بهم .

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 204;

Matthew d'Edesse, Chronique, in R.H.C. - Doc. Arm.,

VOL. I, p. 131;

William of Tyre, op. cit., vol. I., p. 340